لقاء

في كتابه «بيروت: جدل الهوية والحداثة»، الصادر حديثاً، يستعيد الباحث اللبناني سيرةَ المدينة اللبنانية خلال فترة ما بين الحربين العالميّتين، في محاولة لاستقراء شروط النهضة العمرانية التي عاشتها في ذلك الزمن، «حتى لا تبقى الحقائق والتواريخ والسرديات الصغرى أسيرة المُشافهة والذاكرات الفردية»، مثلما يقول في لقائه مع «العربي الجديد»

ماضي بيروت كما كتبه نادر سراج

تأريخٌ اجتماعي من بوّابة السرديات الصغرى

بيروت ـ **أنس الأسعد**

كان من المفروض أن تكون بيروت ملتقى هذا اللقاء بين «العربي الجديد» والباحث والمترجم وأستاذ اللسانيات الاجتماعية اللبناني نادر سراج، للحديث عن كتابه الصادر حديثاً «بيروت: جدل الهوية والحداثة»، لكنّ العدوان الإسرائيلي المُعمّم في أنحاء البلاد والذي يقتل الحياةَ ويُحطم العمران بالموت والخراب، جعل الحديث تراسُلياً من باريس، حيث يُقيم هذه الأيام صاحب «خطاب الرشوة: دراسة لغوية اجتماعية» (2008) و«الشباب ولغة العصر» (2012)، وبعد أن تعذّر عليه القُدوم إلى بيروت مطلع الشهر الجاري كما كان ينوي.

يستكمل نادر سراج (1948) في مؤلّفه الأخير («مكتبة أنطوان»، 515 صفحة من القطع الكبير)، مسيرته بدمج المقاربات اللسانية العمرانية ضمن إطار علم الاجتماع، ويُفرد هذه المرّة الحديث لبيروت في فترة ما بين الحربين العالميّتين، وبالأخص عقد الثلاثينيات من القرن الماضي، مستعيداً زمناً تأسيسياً في تاريخ المدينة الجريحة في ظلّ واقع مليء بالانهيارات الاقتصادية والعمرانية ومحاصر بالاحتلال والإبادة، ومُستكملاً ما بدأه في التاريخ الاجتماعي لبيروت العثمانية مع كتابه «أفندي الغلغول - 1940» (2013). يقول سراج في حديثه إلى «العربي الجديد»: «تأتي استعادة الحديث عن بيروت، أو «أنيسة المدن»، كما يُطلق عليها، من كونها جعلت من زمانها وتاريخها حوافزَ لصُنع حاضرها واستشراف مستقبلها. ولأنها «أمّ الشرائع» وصانعة المعرفة ووجدان اللبنانيّين على مختلف مشاربهم. ومن هنا فالكتاب يدرس تاريخها الاجتماعي والعُمراني من بوّابة السرديات الصغرى، كي يعي أهلُها وقاطنوها والعالم أنها تمتلك حياة وعراقة وقيماً وانتظاماً، ومن رغب صادقاً في طلب ودّها الحضري عليه أن يقرأ قانون انتظامها ويتآلف مع منظوماتها السلوكية والأخلاقية. فالمدن التي خرجت من أسوارها وإسار فئوياتها العرقية والطائفية ملاذاتٌ حضرية تتّسع للجميع، ولا تحدّها تخوم الجغرافيا والتاريخ واللغات».

ويُرجع المؤلّف مسوّغات عمله إلى سبب مركزي: «حتى لا تبقى الحقائق والتواريخ الشفهية والسرديات الصغرى أسيرة المُشافهة والذاكرات الفردية، أو مواضيع الزغلول وإطلاق الزغردات وتوزيع كاسات المغلي العامرة بالمكسّرات أو «الفواخر»، كما يقول أهل الجبل. أمّا المخاطبات التلغرافية فمعبّر حداثوي، فيما تُبشّر «مجلّة الهلال» بالتلفون اللاسلكي، والأدوات الكهربائية تغزو بيروت، وال العينياني المقيمون في زاروب الجمّال، على كتف «عصفور» يقتنون فونوغرافاً، وتعميماً للفائدة تُعلن المجلّة عينها عن استقبال الطبيب الجرّاح محمد خالد مرضاه في عيادته الكائنة بين محلّتَي البسطة الفوقا والبسطة التحتا بين البسطتين». كذلك تضيءُ فصول الكتاب قضايا حيوية ذات صلة بهوية المجتمع وأخذه بأسباب الحداثة، بما فيها قضيّة التربية والتعليم في نماذج مدارس مثل «المقاصد» و«العاملية» و«اللييسيه» و«الصنائع».

اعتمد صاحب «صرخة الغضب: دراسة بلاغية في خطابات الانتفاضة اللبنانية» (2022) على قُصاصات الجرائد واليوميات المُقلّة والصور الفوتوغرافية، بوصفها أدوات دقيقية غالباً ما يُهملها المؤرّخون في سرد أحداث كبيرة، في محاولة لرصد منزلة الاجتماعي الإنساني في مضامينه، ومن هنا فإنّ فصول الكتاب كما يقول: «تُجدّد النظر إلى تعالُق الهوياتي بالسوسيولوجي والأنثروبولوجي والعُمراني في كنف موجات التحديث التي عاشت مدننا العربية إرهاصاتها منذ مطلع القرن المنصرم. فالقضايا التي عالجتُها متشابكة وتسترفد مسألة الهوية وجدلها مع الحداثة وتداخلها مع اللغة وتُقارب الاجتماع الإنساني بمعانيه الرحبة، وتتقصّى مناهج التعليم وطرائقه ومقاصده في المؤسّسات الرسمية والأهلية». ويُضيف صاحب «مصر الثورة وشعارات شبابها: دراسة لسانية في عفوية التعبير» (2014): «انشغلتُ بما دُعي سابقاً بالهوامش والمنسيّات وغير المألوفات، في محاولة لاستنطاق وقائع الأرض، والإلمام بالشواهد والمسموعات والمرويات وبالمساعدات الورقية: الصور الفوتوغرافية، ووثائق الأحوال الشخصية، والمذكّرات، والمراسلات، وأقنية البطاقات البريدية، وإنترنت القرن التاسع عشر (التلغرافات). إنها دعوة للتبصّر والتفكّر في مخبوءات التاريخ الاجتماعي، والشفهي منه على وجه التحديد». إلى جانب بطل الكتاب الأفندي ناجي الجمّال، وحكاية المدرسة التي انتسب إليها (الصنايع)، حيث اتّخذ سراج من صورة خرّيجيها عام 1935 غلافاً للكتاب، بلفتُنا الأسلوب البحثي الذي يظهر بما هو حدّ ثالث تمتزج فيه تقنيات السرد الروائي بالعملية التاريخية، فكما أنّ اللغة موضوعُ بحثه وينظُر فيه عضو مجلس أمناء «المنظمة العربية للترجمة»، هي أيضاً عاملٌ أساسي يُشكّل بيانه، يقول: «اللّغة نصب وزن في الكتاب لأنّها قناة التواصل الأساسي في حياة الأمّة ورافعة تُمثلي لثقافة المجتمع وصُندوقُ مُرتكزي الهوية والكينونة، ولأنّها تعكس العوالم الجديدة والعيش المتغيّر كما تبدّيا في مسالك الحياة اليومية، بمعنى النظر إلى ديناميّة الدخيل والمعيش في منظومة التعامل اللغوي، فقد نشط العُلماء في ميادين التعريب والاقتراض والترجمة، في الفترة التي يتناولها الكتاب، لوضع كلمات عربية للمُخترَعات الحديثة كي تحدّ من غزو المقترضات».

> حين خرجت المدينة من إسار الفئوية وباتت ملاذاً للجميع
>
> يردُّ اليومي إلى رحم الاجتماعي ويجعله همّاً للتفكّر العِلمي

نادر سراج... رحلة سوسيو-لسانية مع عمران بيروت

بطاقة

وُلد نادر سراج في بيروت عام 1948، وحصل على دكتوراه في اللسانيات من «جامعة السوربون الجديدة» في باريس. يُدرّس مادّة فنّ التواصل في «كلية فؤاد شهاب للقيادة والأركان» ببيروت. أصدر 16 كتاباً، من بينها: «حوار اللغات» (2007)، و«خطاب الرشوة: دراسة لغوية اجتماعية» (2008)، و«أفندي الغلغول: شاهد على تحوّلات بيروت خلال قرن 1854 - 1940» (2013)، و«صرخة الغضب: دراسة بلاغية في خطابات الانتفاضة اللبنانية» (2022).

تصويب

عنصرية ووعورة طقس

باسم النبريص

وُلدت حرفيّاً في الشارع، ولهذا كانت حياتي ابنةَ الفضاء العام، منذ الطفولة حتى الشيخوخة. لا حياة شخصية لي خارج الفضاء العام، في أيّ مكان أصله. لهذا لم أنف طوال العمر من فكرة النوم في الشارع، والكتابة في الشارع. وكذا الحلم في الشارع. لذا أهمُّ شيء عندي هو الدفء، في الطقس، لأنّ البرد يقتل في الشارع، ولأنّ البرد يحتاج إلى تدبير خاصّ وسقف ومتطلّبات. بهذا المعنى، فإنّ العيش صعب لامثالي في جوّ بلجيكا المُطر طوال الوقت، والبارد أغلب الوقت، والصقيعي المتجمّد في غير وقت. ولهذا تظلّ بروكسل، وإسبانيا بالعموم، جنّة المشرّدين وكارهي الفضاء الخصوصي. أمّا من بلجيكا فشملاً، فلعلّها الجحيم لكلّ محبّي الفضاء العامّ. ثمّة هُنا في القارّة العجوز، أوروبتان: واحدة في الجنوب، وأخرى في الوسط والشمال. الأولى بحكم دفء طقسها، خلقها الله والتاريخ معاً، بمحتوى اجتماعي أكبر، وتأزّر وطيد بين فقرائها... تآزر يذهب جنباً إلى جنب نحو الغرباء، واللاجئين. أوروبا الوسطى والشمالية قوقعة مغلقة على نفسها، وأقلّ إنسانية بمراحل، نموذجان متعاكسان. فكيف لمن عاش في الجنوب أن يقبل العيش في الوسط والشمال، اللذين هُما على بؤسهما، ووعورة الطقس، عنصريان أيضاً، ولو ادّعيا غير ذلك؟

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

إطلالة

شهر الشريط الوردي ليس ورديا

فوزية ابو خالد

لا أدري إذا كان الكتّاب يمرّون بأرق أن يكتبوا عن تجاربهم الروحية والجسدية الودودة أو اللدودة كما تمرّ به بعض الكاتبات، أو إن كان ذلك الهاجس لا علاقة له بهوية النوع الاجتماعي بقدر علاقته بنوع تفاعل الناس مع التجارب التي يمرّون بها، أي بدرجة ملاحظتهم واستماعهم لإيقاعهم الداخلي وبطاقة تحمّلهم وقدرتهم على التسرّر على جراحهم أو رغبتهم في تقاسمها مع آخرين، بما يُرجّح هذا الهاجس كحالةٍ فردية خالصة. غير أنّ ما أعرفه حقّاً، في علاقتي بهذا السؤال، هو أنّني مهجوسةٌ بالتفكير في كيفية كتابة تلك التباريح الروحية والجسدية التي يشترك في مواجهتها، على اختلاف تجاربها، البشر. ولكنّ قلّةً من يستطيعون أو يريدون التعبير عنها. مثلاً، تجربة شجن فقد أسنان اللبن ودهشتها، تجربة إدراك الذات الأولى، تجربة الانتقال من الطفولة إلى المراهقة بما يعتريها من تحوّلات مفاجئة جارفة، تجربة الفقد المفاجئ أو تجربة الحياة في كنف الموت.

وكلّما عاد شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر من التاريخ الميلادي، عاد لي هاجس التفكير في كتابة تجربة جسدية روحية مشتركة بيني وبين نصف نساء العالم؛ حيث يضجّ هذا الشهر بالحملات العالمية لإحيائها في صدور النساء في محاولة للحماية من السرطان.

ألا ليت حملات مماثلة تُحاض ضدّ سرطان الحرب وسرطان الاحتلال الذي ينهب حياة الأبرياء من دون أن يكون منه درع أو له «ماموغرام» (تصوير الثدي الشعاعي).

وعوداً على بدء، منذ دخلت الأربعين وصار لزاماً عليَّ أن أمرّ بالتجربة الوردية (التي ليست ورديةً البتّة إلّا اللهمّ بما قد تُجنّبنا بها إرادة الله من أخطار داكنة)، لم أكفّ سنوياً عن تجرّع آلام تلك الآلة التي بغير رحمة تقبض على تلابيب الصدر وبكل ما في ملمسها البارد من قسوة تعصر الجسد والروح في عجينة واحدة وتحيلهما إلى ما يشبه التذرّي لهباء. أجلس في شهر أكتوبر من كلّ عام بغرفة الانتظار مع عدد يزيد أو ينقص من النساء على مشارف الأربعين إلى ما بعدها من اندلاعات العمر أو احتدام الشفق، متوجّسةً أحاول التشاغل عن توتّري بالتبسّم في وجوه رفيقات اللحظة أو الإصغاء لدقّات القلوب المتخفّية في أحاديث مقتضبة مغرقة في الاغتراب عن موضوع اللقاء.

فلا تزيدني محاولة قراءة تلك الوجوه النسائية المختطَفة مثل وجهي إلّا تبعثراً بين عشب الأمل ويباس اليأس. لا شيء يشغلني عن طفولة وجداني في تلك اللحظة والشوق المبرح لحضن أمّي إلّا توقّع الأسوأ لا سمح الله، فأحاول التخفّف من وقع الوجع الصاعق المنتظر بندى الدعاء. أفكّر ألّم يكن ممكناً لمن اخترع الماموغرام أن يجعله أقلّ غلظةً أو يخلط ملمسه الشرس بشيء من الحنان كما ترشّ الأمّهات الشهد على علقم مواجهاتنا اليومية الصغيرة؟ تردُّ مسؤولة الأشعّة، وكأنّها سمعت تفكيري دون كلمات: «الماموغرام الآن يُعتبر رؤوفاً جدّاً بالمقارنة مع ما كان عليه الأمر في الثمانينيات. كان لا يقلّ عن مقصلة آنذاك». ثم تضيف: «لا شيء يعادل فرصة النجاة من السرطان بإذن الله». أجد نفسي أبسمل بأبتهال وأقرأ المعوذتين في سرّي بتبتّل وكأنّه آخر العهد بقراءة القرآن لا سمح الله... فلا البثّ أن أحسّ بسكينة تسري في دمي بما يسمح لي بسماع هواجسي، وهي تُسائل الماموغرام أسئلة وجودية وفلسفية لا أظنّها بعد قليل ستكون عصية على الإجابة على الذكاء الصناعي وإن تكتّم عليها ذكاء البشر أو مكرهم السياسي. أيها الماموغرام هل أصغيت قطّ للصرخات المكتومة خلف الشفاه المطبقة؟ هل سمعت تكسُّر الزجاج على المرمر؟ هل أحسست بتشظّي الروح والجسد لحظة اصطدام الطير بالجدار؟ هل بلغك همسُ ليس صمتاً وليس كلاماً؟

تنادي اسمي المرْضة. أدخل غرفة الأشعة المثلجة. هناك سيّدة بإخلاص تعقّم سطح الآلة بالحيادية نفسها التي ستناولها قطعة من روحي. أحبس أنفاسي خجلاً من مقارنة ما يجري في إكتوبر من العام الماضي إلى هذا العام من محو جماعي متعمّد للنساء وأسرهنّ على أرض غزّة. وأحسّ بأنّني أنجح لأوّل مرّة في إخفاء جزعي أمام الماموغرام.

(شاعرة وكاتبة وأكاديمية من السعودية)

مكنونات العربية وأفكارها على أرضية مُعاصرة

تفاعُل حيوي بين المدينة واللغة

تطوّرت العربية في ثلاثينيات القرن الماضي لاحتكاكها بلغات حيّة. وضمن هذا السياق شهدت بيروت حركة في تأليف المعاجم وتسميات جديدة للمُخترَعات

طلبة في «مدرسة الصنايع» ببيروت خلال الثلاثينيات (من أرشيف الموقف)

يتابع الباحث اللبناني نادر سراج حديثه إلى «العربي الجديد» حول كتابه «بيروت: جدل الهوية والحداثة»، متطرّقاً إلى ظواهر التعريب والاقتراض والترجمة التي عاشتها بيروت في ثلاثينيات القرن الماضي، ويُمثل على ذلك التخاطب بمفردات مثل: المَوّاج (الهاتف) والإصابة بالإنفلونزا (الحمّى الوافدة) وقيادة الأوتوموبيل (السيّارة، الجوالة) وارتياد التياترو (المسرح)، والأومنيبوس (الحافلة)، وارتياد الأوبرا (دار التمثيل) أو الأوتيل (الفندق)، وزيارة الإسكلة (الميناء/ المرسى)، وارتداء الباردوسي (الدثار) في الخارج، وانتعال البنطوفلي (الخفّ القصير) في الداخل المنزلي، والاستعانة بماكنجية الفابريقة (ميكانيكيون ملمّون بصيانة الآلات في المصنع)، لتصليح ماكينة الخياطة، إلخ.

ويُعقّب: «تطوّرت العربية جرّاء احتكاكها بلغات حيّة، فأضحت وسيلة مرنة تحمل الأفكار إلى الآخر، وتُخرج بمهارة مكنونات الجماعة وعصارة أفكارها. وفي هذا السياق جرى تأليف «قاموس العوام» لحليم دموس عام 1923 و«كتاب المُنذر» لإبراهيم المُنذر عام 1927».

ويضيف: «تشهد مدننا العربية التي تركت بصماتها في الثقافة والعمران وألعلوم اليوم احداثاً جساماً وحروباً مدمّرة للحجر والبشر، وللفكر والمعارف، تتعرّض لأعتى الظروف ولمحاولات غاشمة بل مُمنهجة لتدمير معمارها وتغيير انماط اجتماعها الثقافي، وتشتيت أناسها، وطمس معالم هويتها المتسامحة والرحبة. بيروت كانت ولا تزال واسطة عقدها، لذا سعيتُ لتاريخ تفتّح حداثتها، وانبلاج فجر نهضتها الثقافية والتعليمية في فترة ما بين الحربين».

ويختم بكلمات أخيرة يتوجّه فيها إلى الأكاديميين والباحثين، يُقيّم من خلالها مستقبل هذا النوع من الدراسات الأنثروبولوجية، في ظلّ راهن مديني مُحطّم: «حبّذا لو التزمنا أو قاربنا كأنثروبولوجيين وباحثين في التاريخ الاجتماعي وكلسانيين اجتماعيّين نهج الكتاب وأمثاله، واعتي الحفر الجادّ في مناطق بكر، والتوسّل بأدوات منهجية بينيّة، والانهماك بالهمّ العام بعين الباحث السابرة التي لا تكتفي بالوصف والسرد، بل تتعقّب توصيفها بالتحليل والاستنتاج بأساليب وصيغ مستحدثة تخرج في الأعمّ الأغلب عن تقاليد المؤسسة. لا مستقبل لمثل هذه الدراسات البينيّة، ولن يبزغ فكر عربي أصيل، ولا نهج يجاري المعاصرة، إلّا إذا تجرّأنا على طرح الأسئلة الكبرى، المحقّة والمنطقية التي راودت الباحثين، مستلهمين قول الخليل بن أحمد الفراهيدي «العلمُ أقفالٌ مفاتيحُها سؤالات». فلنجهد لربط اللسان بالاجتماع بمعانيه العمرانية التي تساوق حياة الإنسان داخل الموطن والمكان، وداخل الثقافة والحضارة، وفي الزمان».

أنس...

فعاليات

يُفتتح، عند السادسة من مساء الثلاثاء المقبل، في «دارة الفنون» بعمّان، معرض **تحت النار**، ويتواصل حتى الحادي والثلاثين من كانون الأوّل/ ديسمبر المقبل. يضمّ المعرض أعمالاً لأربعة فنّانين من غزّة؛ هم: **باسل المقوسي** و**ماجد شلا** (الصورة) و**رائد عيسى** و**سهيل سالم**، توثّق واقع حرب الإبادة الجماعية المستمرّة.

في «دار الأوبرا المصرية» بالقاهرة، تتواصل حتى 24 الجاري فعاليات الدورة 32 من **مهرجان ومؤتمر الموسيقى العربية**، والتي انطلقت أمس. يشارك في المؤتمر 40 باحثاً يناقشون محاور من بينها: الروافد الثقافية وواقع الموسيقى العربية، والاغنية العربية المعاصرة، وتأثير الموسيقى الشعبية على الإبداع العربي المعاصر.

ضمن فعاليات «مهرجان كتارا للرواية العربية»، يُفتتح عند العاشرة من صباح غدٍ الاحد في «المؤسّسة العامّة للحي الثقافي - كتارا» بالدوحة **معرض التهامي الوزّاني**، ويتواصل حتى العشرين من الشهر الجاري. يضيء المعرض تجربة الروائي المغربي (1903 - 1972) الذي اختير شخصية المهرجان لهذا العام.

سرديات عابرة عنوان معرض جماعي يتواصل في «قصر برج البكوش» بمدينة ارانة التونسية حتى الجمعة المقبل. يضمّ المعرض، الذي افتتح أمس، أعمالاً لخمسة عشر فنّاناً تونسياً؛ من بينهم: **محمّد قيقة**، و**محمد بوعزيز**، و**آمال بوسلامة**، و**عمر الغدامسي**، و**امير الشلي**، و**ليلى الركباني**، و**حمادي بن نية**، و**ليندا عبد اللطيف**، و**هالة سراج**.